

التوحيد في سورة التوحيد

د. عزة عدنان احمد عزت

د. رافع عبد الله مالو

حيأة العلوم الانسانية / جامعة زاخو

سورة الإخلاص "سورة خالصة ليس فيها ذكر شيء من أمر الدنيا والآخرة"⁽¹⁾، أغراضها إثبات وحدانية الله تعالى، فهو الصمد الذي لا يقصد في الحوائج غيره، وتنزيهه سبحانه عن سمات المحدثات كالولد والوالد والولادة - إبطالاً لاعتقاد البعض أن الإله يمكن أن يولد كعيسى عليه السلام - والبراءة من الشرك والشريك.

نزلت السورة في قول المشركين للرسول (صلى الله عليه وسلم): انسب لنا ربك⁽²⁾، لذا، ولأن الاستهلال يؤثر في الانطباع الأولي للنفس فيكون أكثر تأثيراً وفعالية من غيره لأنه يسحب آثاره على ما يليه⁽³⁾، فقد ابتدأت السورة بفعل الأمر (قل) لتكون جواباً عن سؤالهم، واتبع فعل الأمر هذا بالضمير (هو)⁽⁴⁾ فأفاد فائدة صوتية عززت الفائدة اللغوية - في إرادة التعظيم والتفخيم⁽⁵⁾ - تتمثل في أن (واو) الضمير (هو) مفتوحة، فاستوجب أن تكون لام لفظ الجلالة مفخمة بعدها، أما لام (قل) فساكنة، ولو حذف الضمير لكسرت اللام لالتقاء الساكنين، ولو كسرت اللام لرفقت (لام) لفظ الجلالة فيقال (قل الله) بالترقيق وهذا حتماً لا يتناسب وأغراض السورة وسبب نزولها، الوحدانية ونفي التعدد في الآية الأولى، وإثبات الكمال ونفي النقض والعجز في الآية الثانية وإثبات أزليته سبحانه وبقائه ونفي الذرية في الآية الثالثة وإثبات العظمة والجلال ونفي الأنداد والأضداد في الآية الرابعة⁽⁶⁾.

إن إنعام النظر في فاصلة السورة، أو نوع أصواتها وعددها، أو مقاطعها الصوتية⁷، فضلاً عن تركيبها، يعزز لنا فحواها، فتوحيد الفاصلة يتناسب وتوحيد الله سبحانه وتعالى، واحتواء السورة على أحد عشر صوتاً مهموساً فقط، واستحواذ الأصوات المجهورة على أكثر من ضعف عدد المهموسة، يتناسب ومسألة الجهر بالتوحيد التي تقتضي المجاهرة وعلو النبرة⁽⁸⁾ يعزز ذلك أنها ابتدأت بـ (قل) أي قل ذلك واجهر به.

أما تكرار صوت الدال خمس مرات في السورة، فضلاً عن انتهاء الفواصل به، فقد أعطى جرس موسيقى داخلية تحكمها قيم صوتية أرحب من الوزن والنظم المجردين⁽⁹⁾ لأن صوت الدال يجسد العزم والقوة والحزم⁽¹⁰⁾، فهو صوت انفجاري شديد، ناسب المعاني المتوخاة منه في الرد العنيف على دعوات الشرك، وتكرار كلمة أحد فيها يجسد فكرة التوحيد منذ المبدأ حتى المنتهى بدأت بـ أحد وانتهت بكلمة أحد⁽¹¹⁾.

(1) جامع البيان 423/30.

(2) بصائر ذوي التمييز 553/1 والتحرير والتنوير 612/30.

(3) الأسس النفسية لأساليب البلاغة العربية/91.

(4) ينظر: تفسير النسفي 1383 وروح المعاني 699/30 ومعارج التفكير 78/2.

(5) ينظر: من بلاغة القرآن/151.

(6) صفوة التفاسير 622/3.

(7) المقاطع الصوتية في العربية خمسة: (ص ح) و(ص ح ص) و(ص ح ح) و(ص ح ح ص) و(ص ح ص ص) حيث (ص) الصوت أي الحروف كلها باستثناء العلة، و(ح) حركة الصوت أو الحرف القصيرة: الفتحة أو الضمة أو الكسرة، و(ح ح) الحركة الطويلة التي تتمثل بأحرف العلة: الالف والواو والياء.

(8) ينظر: الإعجاز الصوتي في قصار السور/10.

(9) الرمز والرمزية/362.

(10) الانفعالية الإبداعية/331.

(11) الإعجاز الصوتي في قصار السور/10.

وإذا ما علمنا أن السورة خالصة في التوحيد، وأن صوت اللام المتكرر اثنتي عشرة مرة، من الأصوات الجانبية المنحرفة، أدركنا أهمية التأكيد على الانحراف في عقائد الناس في ذلك الزمان، فكأن التكرار في هذا الصوت يتناسب مع مسألة الاهتمام بصحة العقيدة وعودتها من حالة الانحراف إلى طريق الحق والصواب⁽¹⁾، فضلاً عن رؤية البعض أن صوت اللام يمثل نوعاً من الهدوء يناسب المشهد الموحى بالعبادة⁽²⁾، كونه من الحروف الرخوة⁽³⁾.

وتبدو لنا أكثر من صورة أساسية من صور الإعجاز الصوتي، كالتلازم الصوتي الذي أوضحه تغلب عدد الأصوات المجهورة على المهموسة، أو كالمحاكاة الصوتية للمعنى التي ظهرت في تكرار اللام وتقويمه في مواضع، وترقيقه في أخرى حسب ما اقتضى المقام، أو في الإيقاع القرآني الذي عبر عنه ارتفاع نسبة عدد المقاطع الصوتية المغلقة (ص ح ص) التي تمثل الشدة والقوة إذ جاوزت الـ (51%)، وهي أعلى نسبة لم تصل إليها أي سورة في جزء عم باستثناء سورة الكوثر، فضلاً عن ذلك نجد الإعجاز الصوتي في الفواصل أيضاً إذ تمثل بتوحيد الفاصلة في السورة، فناسب موضوعها (التوحيد).

أما مفردات السورة (أحد⁽⁴⁾، صمد، كفواً، يلد، يولد) فلم ترد بهذه الصيغ والمعاني إلا مرة واحدة في القرآن الكريم، وكأن في هذا ما يشير إلى أن التوالد إمارة الفناء، لأنه يكون من أجل البقاء⁽⁵⁾ ويعزز من دلالة الوحدانية والخلود لله في السورة، ويتفق وأسباب نزولها⁽⁶⁾، بل ويتطابق وبعض أسماء السورة كالتفريد والتوحيد⁽⁷⁾، واللطيف أن هذا العدد من الألفاظ الألفاظ يمثل ثلث عدد مفردات السورة، فكأنه بهذا يحاكي كون السورة "معادلة لثلث القرآن"⁽⁸⁾ باعتبار أن القرآن قسمان: خير وإنشاء، والخير قسمان: خير عن الخالق وخير عن المخلوق، فهذه ثلاثة أثلاث، وسورة الإخلاص أخلصت الخير عن الخالق فهي بهذا الاعتبار ثلث⁽⁹⁾.

لقد أعطت كثرة الحركات القصيرة، المتمثلة بالمقطع الصوتي القصير المفتوح (ص ح)، إيقاعاً قوياً يهز هزاً عنيفاً، لذا لفت البطء في زمن نطق ثلاثة ألفاظ الانتباه.

فمن خلال النظر في جدول المقاطع الصوتية للسورة، نلاحظ وجود ثلاثة مقاطع طويلة مفتوحة (ص ح ح) فقط، اثنان منها بصوت الألف المفخمة في لفظ الجلالة (الله) والأخيرة بصوت الواو المرققة الطويلة التي تمثل التكرار الطويل أو الضم والتصغير في لفظ (يولد)، فكأنها تقلل من شأن عملية الولادة والتكاثر، فلام لفظ الجلالة مفخمة، ولام يولد مرققة أما لام يلد فمكسورة، وكأنها تعبر تعبيراً صارخاً "عما خفي وظهر من أحزان تلك النفوس الكسيرة"⁽¹⁰⁾.

جدير بالذكر أن أصل (يلد) (يولد)، فلما حلت الواو بين ياء وكسرة خزلت، كما أن أصل (لم يكن) لم يكن، ولما استنقلت الضمة على الواو نقلت للكاف وسقطت عن الواو لسكونها وسكون النون⁽¹¹⁾.

(1) سورة الإخلاص دراسة صوتية، كريم ذنون /4.

(2) الإيقاع أنماطه ودلالاته/120.

(3) الرعاية/107.

(4) ينظر: الوجوه والنظائر/280.

(5) الأساس في التفسير/11/6749.

(6) أسباب النزول/309.

(7) ينظر: التفسير الكبير 175/32 والمختار من تفسير القرآن/ الشعراوي 147/3.

(8) التفسير الكبير 177/32.

(9) روح المعاني 695/30.

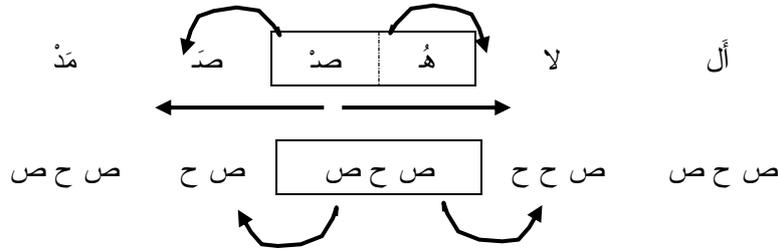
(10) الانفعالية البلاغية/44.

(11) كتاب إعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم/ 247.

جدول المقاطع الصوتية للسورة

المجموع	المقطع ص ح ص		المقطع ص ح ح		المقطع ص ح	الآية
	الصوت	العدد	الصوت	العدد		
7	ل ل د	3	آ	1	3	1
5	ل ص د	3	آ	1	1	2
7	م د م د	4	و	1	2	3
10	م ل ن ن د	5		0	5	4
29		15		3	11	4
		%52		%10	%38	

وإن كان الصمد هو السيد الذي يصمد إليه في الأمر⁽¹⁾، وفيه نلاحظ معنى الالتجاء، فإن في تعريفه بالألف واللام واقترابه من لفظ الجلالة ما يعزز من هذا المعنى صوتياً، لأن الصمد لفظ يبدأ بحرف الصاد الشمسي، فتدغم لام التعريف في الحرف الأول⁽²⁾ منه وهو الصاد، فضلاً عما في التعريف هنا من أثر نفسي قوي، فكم هو الفرق بين مثلاً بين بين أبوك عبد وأبوك العبد⁽³⁾ وقد يوضح المخطط الآتي ذلك:



وتجدر الإشارة إلى أن الصمد هو المصمود، ففَعَلَ هنا بمعنى مفعول، وقد عدل عنها لا تناسقاً للفواصل فحسب، بل لما يوحيه "وزنها الصرفي من صيغ الصفة المشبهة (فَعَلَ) مثل حسن وبطل فيسبق إلى الذهن معنى الثبوت فيها والدوام، وهو أمر متحقق فيه جَلَّ وعلا"⁽⁴⁾ ولن تعطي (الله المصمود) ما أعطته (الله الصمد) من معنى دلالي وإيقاع صوتي، بل انها لمختلفة في اتصال مقاطعها الصوتية فضلاً عن اختلاف نوعها، والمخطط الآتي يوضح ذلك:



(1) المفردات/294 والفروق/175.

(2) التصريف العربي/65.

(3) ينظر: الأسس النفسية لأساليب البلاغة العربية/118-120.

(4) لغة القرآن الكريم/434.

قد أدخل اللام في (الصمد)، ولم يدخل في (أحد)، "لأنه ليس في الموجودات ما يسمى أحداً في الإثبات مفرداً غير مضاف، ولم يوصف به شيء من الأعيان إلا الله وحده، وإنما يستعمل في غير الله في النفي وفي الإضافة وفي العدد المطلق، أما اسم الصمد فقد استعمله أهل اللغة في حق المخلوقين"⁽¹⁾.

وجدير بالذكر هنا أنه سبحانه لم يوصف إلا في هذه الآية فقط بأنه (أحد) وحين وصف بأنه واحد لم يقترب بلفظ الجلالة (الله) بل بلفظ إله (إله واحد) أو مقترناً بلفظ القهار (الواحد القهار)⁽²⁾، والمتأمل في أصوات لفظة (أحد) يلحظ أنها تتبع من أقصى الحلق: الهمزة، والحاء، ثم تنتهي إلى صوت الدال الخارج من الحلق بين اللسان وأصول النشاي، ما دلالة هذا السلوك الصوتي الممتد من الداخل العميق إلى الخارج المرئي؟ الله تعالى أعلم أن الإيحاء هنا ان التوحيد ينبع من القلب ويظهر على اللسان والجوارح وهذا ربط في غاية اللطف والعمق"⁽³⁾.

إن (أحد) التي لا ينعت بها غير الله تعالى لخصوص هذا الاسم الشريف له جل ثناؤه⁽⁴⁾، وردت مرتين في السورة، فأحدثت "إيقاعاً متوازناً ومتقابلاً جامعاً بدلالته بين السلب وبين الإيجاب"⁽⁵⁾، لأن الواحد يستعمل في الإثبات، والأحد في النفي⁽⁶⁾، وورودها نكرة مكونة من مقطعين غير متصلين بما قبلها ولا بعدها، وضع لخصوصيتها حدوداً، فهي تختلف عن (واحد)⁽⁷⁾، لأن (واحد) يلحق مؤنثه الهاء، فيكون واحدة، ويجمع على (وحدان)، أما (أحد) فلا تلحقه علامة التأنيث، ولا يجمع⁽⁸⁾، وإنما وصف سبحانه بـ (أحد) ولم يوصف بـ (واحد)، لأن الصفة المشبهة نهاية ما يمكن به تقريب معنى وحدانية الله تعالى إلى عقول أهل اللسان العربي المبين⁽⁹⁾، فضلاً عن أنها "لم تأت وصفاً لاسم الله تعالى إلا في هذه الآية، أما آيات القرآن الأخرى كلها، فقد وردت بالمعنى اللغوي وهو واحد من الخلق"⁽¹⁰⁾، واللطف أن واحداً حين استعملت فيما يخص الله سبحانه وتعالى اقترنت إما بلفظة (إله) (إله واحد) أو (قهار) (الواحد القهار)⁽¹¹⁾.

وإن بدا لنا الاتصال في المقاطع الصوتية متاغماً ومعنى الآية الثانية [الله الصمد] فإن الانفصال في المقاطع الصوتية يبدو هو الآخر متاغماً ومعنى الآية [لم يلد ولم يولد]، فكل المقاطع فيها مفصولة (لم/ يـ/ لد/ و/ لم/ يو/ لد) تحاكي أن من يصمد إليه لا يكون في حالة أن يلد، لأن طلب الولد لقصد الاستعانة به في إقامة شؤون الوالد وتدارك عجزه⁽¹²⁾، فضلاً عن ذلك، فإننا نرى في مجيء النفي بـ (لم) المتكرر ثلاث مرات ذي المقطع الصوتي المغلق المنتهي بصامت (ص ح ص) دون (لا) المنتهي بصائت (ص ح ح)، إيقاعاً أقوى يفيد القطع والجزم، وكأن عملية الولادة مقطوعة مبتورة مجزومة لا جدال في هذا، ولاسيما أن "الولادة انبثاق وامتداد ووجود زائد بعد نقص أو عدم، وهو على الله محال، ثم

(1) تفسير القاسمي/ 507/9.

(2) ينظر: التفسير البياني 46/1.

(3) الاعجاز الصوتي في قصار السور/11.

(4) تفسير القاسمي/ 506/9.

(5) الجناس في القرآن/61.

(6) التفسير الكبير/ 179/32.

(7) التفسير الكبير/ 178/32.

(8) ملك التأويل/ 1157 و 1158.

(9) التحرير والتنوير 614/30.

(10) ملك التأويل/ 1157 و 1158.

(11) ينظر: التفسير البياني/46/1 والمعجم المفهرس/835.

(12) التحرير والتنوير 618/30.

هي تقتضي زوجية تقوم على التماثل وهذه كذلك محال⁽¹⁾ والمخطط الآتي يوضح ذلك وبرينا كيف أثر مجيء (لم) في موسيقى الآية المقصود، ولو انها كانت آيتين لما كان هناك فرق، لأننا سنقف على الساكن !

$$\begin{aligned} \text{لم يلدُ ولم يولدُ} & \leftarrow \text{ص ح + ص ح ص} = 2 + 4 = 6 \text{ من أصل } 7 = 85.7\% \\ \text{ما يلدُ وما يولدُ} & \leftarrow \text{ص ح + ص ح ص} = 2 + 4 = 6 \text{ من أصل } 8 = 75\% \\ \text{لا يلدُ ولا يولدُ} & \leftarrow \text{ص ح + ص ح ص} = 2 + 4 = 6 \text{ من أصل } 8 = 75\% \end{aligned}$$

وتتسق الفواصل في مجيء (لم يلد) قبل (لم يولد)، فكل سكون للدال سبقه حركة بالفتح، فضلاً عن أهمية تقديم الولد، إذ نسب أهل الضلالة الولد لله تعالى ولم ينسبوا إلى الله والداً⁽²⁾، والمخطط الآتي يوضح فواصل الآيات في حال تقديم نفي الوالد على نفي الولد.

أ	...	يولِدُ	...	صمَد	...	أ	...
أ	...	يَلِدُ	...	صَمَد	...	أ	...

جدير بالذكر أن السورة ابتدأت بمقطع طويل مقفل بصامت (ص ح ص)، وانتهت بمثله، وكأنها بهذا الشكل تشكل سوراً منيعاً حصرت فيه المعاني التي تضمنتها السورة وقصرتها على الباري سبحانه وتعالى، كما يبدو ابتداء الآية الأولى والثانية وانتهاهما بهذين المقطعين، كأنه يمثل حالة حصر وقصر للأحذية والصمدية⁽³⁾ على ذاته جل جلاله. وأخيراً نجد في تقديم خبر فعل الكون في الآية الأخيرة، ما قوى البناء المتين، وأصاب المعنى المراد، وراعى الفواصل البديعة⁽⁴⁾، لتنتهي جميعها بصوت الدال الذي دلّ دلالة ايجابية بالشدة والقوة، فهو صوت شديد انفجاري "يمتلك صفات توحى بشدة الجرس وقوته وبالتالي دلالة هذا الجرس على المعنى الذي يؤديه هذا الصوت منفرداً على نطاق اللفظة الواحدة أو مكرراً في سياق العبارة والسورة الكاملة، ولما كانت السورة إثباتاً وتقريراً لعقيدة التوحيد ونفي الشرك عن الذات الإلهية جاءت بهذا الشكل الصوتي الذي أحدثه صوت الدال ليقرر الحقيقة كاملة، ولينسجم الإيقاع الصوتي في هذه السورة مع الجو العام لمشهد التوحيد وإثباته في النفوس"⁽⁵⁾.

قائمة المصادر

- الأساس في التفسير: سعيد حوى، ط2، القاهرة، 1409 هـ - 1989م، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع.
- أسباب النزول: أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري، بيروت، 1990م، دار الكتب العالمية.
- الأسس النفسية لأساليب البلاغة العربية: د. مجيد عبد الحميد ناجي، بيروت، 1984م، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.
- الانفعالية البلاغية في البيان العربي: عصام كمال السيوفي، بيروت (د.ت)، دار الحدائث.

(1) في ظلال القرآن/30/290.

(2) التحرير والتنوير/30/618.

(3) سورة الاخلاص دراسة صوتية/82.

(4) تفسير القاسمي/9/509 ومن وحي القرآن/133.

(5) الإيقاع أنماطه ودلالاته/120.

- التصريف العربي من خلال علم الأصوات الحديث: الطيب البكوش، تونس، 1973م، الشركة التونسية لفنون الرسم.
- التفسير البياني للقرآن الكريم: عائشة عبد الرحمن، ط2، مصر، الجزء الأول 1386 هـ - 1966م، الجزء الثاني، 1388 هـ، 1968م.
- تفسير التحرير والتنوير: محمد الطاهر بن عاشور، (د.ت)، الدار التونسية لنشر، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والاعلان.
- تفسير الطبري (جامع البيان عن تأويل آي القرآن): أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، ضبط وتعليق محمود شاكر، تصحيح علي عاشور، بيروت، 2001 م، دار احياء التراث العربي.
- تفسير القاسمي المسمى محاسن التأويل: محمد جمال الدين القاسمي، القاهرة، 1914م، دار الحديث.
- التفسير الكبير: الامام الفخر الرازي، طهران، ط2، (د.ت)، نشر دار الكتب العلمية.
- تفسير النسفي مدارك التنزيل وحقائق التأويل: عبدالله بن أحمد محمود النسفي، بيروت، 2000م، دار المعرفة.
- الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة: أبو محمد مكي بن أبي طالب القيسي، تحقيق: د. أحمد حسن فرحان، (د.ت)، توزيع دار الكتب العربية.
- الرمز والرمزية في الشعر المعاصر: محمد فتوح أحمد، ط2، القاهرة، دار المعارف، 1978م.
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود الآلوسي البغدادي، تحقيق: محمد أحمد الأمد وعمر عبد السلام السلامي، بيروت، 2000م.
- صفوة التفاسير: محمد علي الصابوني، القاهرة، ط9، (د.ت).
- الفروق في اللغة: أبو هلال العسكري، ط3، دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1979.
- في ظلال القرآن: سيد قطب، ط3، بيروت- لبنان، (د.ت)، دار احياء التراث العربي.
- كتاب اعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم: أبو عبدالله الحسين بن أحمد المعروف بابن خالويه، (د.ت)، دار التربية، مطبعة منير، بغداد.
- لغة القرآن الكريم في جزء عمّ: محمود أحمد نحلة، بيروت، 1981م، دار النهضة العربية.
- المختار من تفسير القرآن العظيم بأجزائه الثلاثة: محمد متولي الشعراوي، بغداد، الدار العربية.
- معارج التفكير ودقائق التدبر: عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، دمشق، 2000م.
- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم: محمد فؤاد عبد الباقي، القاهرة، 1996م، دار الحديث.
- ملاك التأويل، القاطع بذوي الاحاد والتعطيل في توجيه المتشابه باللفظ من آي التنزيل: أحمد بن ابراهيم بن الزبير الثقفي العاصمي الغرناطي، تحقيق: سعيد الفلاح، بيروت، 1983م، دار الغرب الاسلامي.
- من بلاغة القرآن: أحمد أحمد بدوي، القاهرة، 1950م، دار نهضة مصر للطبع والنشر.
- من وحي القرآن: ابراهيم السامرائي، بغداد، بيروت، 1981م، منشورات اللجنة الوطنية للاحتفال بمطلع القرن الخامس عشر الهجري، مؤسسة المطبوعات العربية.
- الوجوه والنظائر في القرآن الكريم: هارون بن موسى، تحقيق: د. حاتم صالح الضامن، بغداد، 1988م، وزارة الثقافة والاعلام، دائرة الآثار والتراث، دار الحرية للطباعة.

- الايقاع أنماطه ودلالاته في لغة القرآن الكريم، دراسة أسلوبية دلالية: عبد الواحد زياد اسكندر المنصوري، رسالة ماجستير، بإشراف: أ.د. أحمد جاسم النجدي، مقدمة لكلية الآداب، جامعة البصرة، 1995م.
- الجناس في القرآن الكريم: أسماء سعود الخطاب، رسالة ماجستير، بإشراف: د. أحمد فتحي رمضان، مقدمة لكلية الآداب، جامعة الموصل، 1998م.
- الاعجاز الصوتي في قصار السور: أحمد فليح، مجلة جامعة تكريت للعلوم الانسانية، المجلد 12، العدد (5)، جمادي الأولى 1426 هـ - حزيران 2005م.
- سورة الاخلاص دراسة صوتية: بحث مخطوط، كريم ننون، كلية الآداب، جامعة الموصل، قسم اللغة العربية 2002م.